فنّ تشكيليّ

القدس في التشكيل الفلسطيني

* غازي انعيم

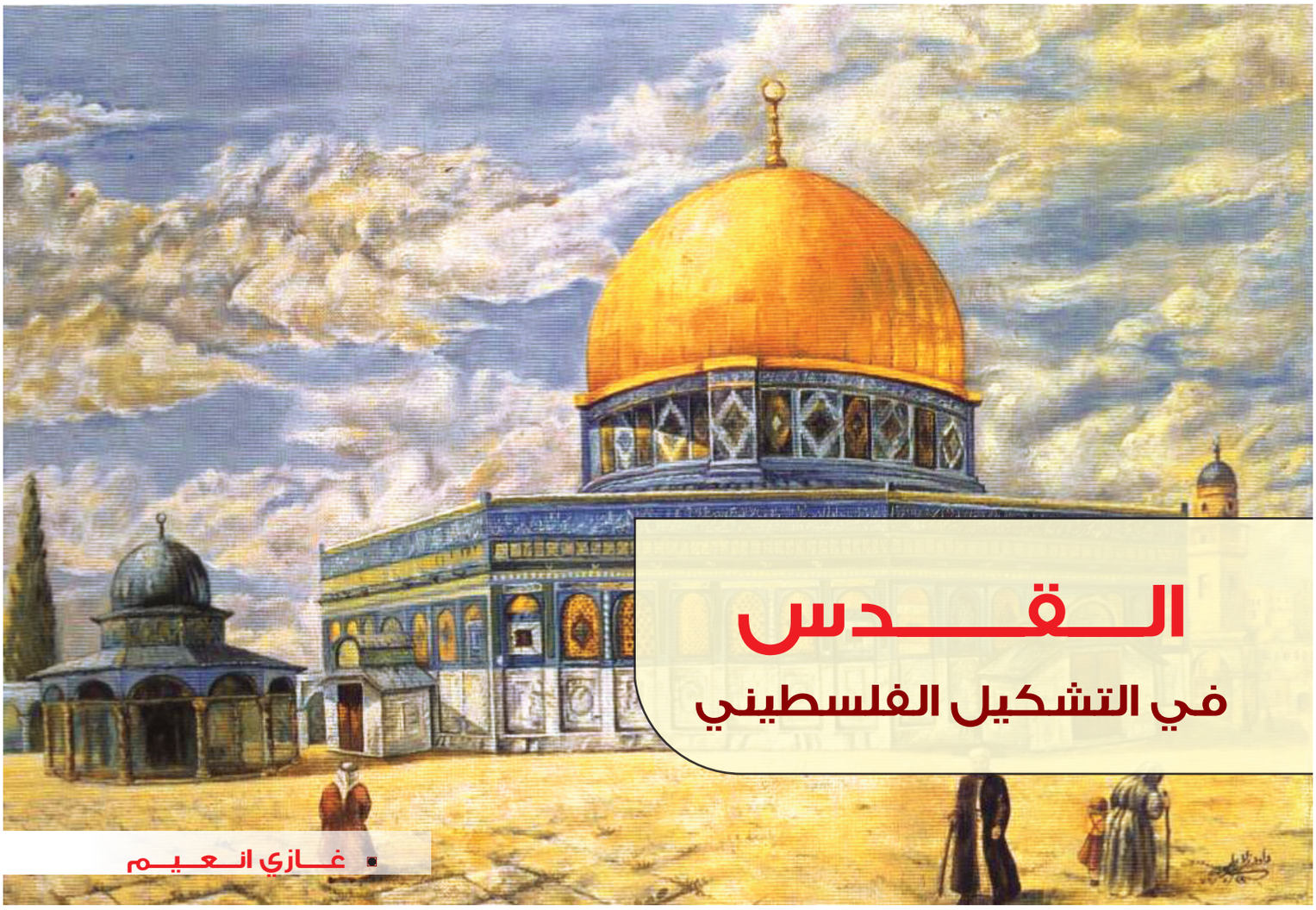

القـــدس
في التشكيل الفلسطيني

غـــازي انـــعـــيـــم

تـــعـــدّ القدس التي تحتل منزلة كبيرة في الوجدان العربي والإسلامي بوصفها رمزاً قومياً ودينياً وإنسانياً، من أقدم المدن في العالم وأقدسها، فاسمها مشتق من القدسية ، وتاريخها يعود إلى نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد حظي اسمها « القدس » بالنصيب الأكبر، يليه اسم « المسجد الأقصى » ثم « أور سالم » فـ « المسرى » فـ « مهد عيسى » أما المدونات التاريخية، التي وجدت في أنحاء كثيرة من العالم، فقد أطلق عليها نحو (50) اسماً ونحو (50) صفة. ورغم تعدد أسمائها وصفاتها في التاريخ، إلا أن صفات السلام والقداسة هي الصفات التي أعطاها العرب اليبوسيون لها، فهي حسب الموسوعة الفلسطينية: « مدينة الإله سالم » أو « نور الإله سالم » أو هي « مدينة السلام » أو « نور السلام » أو « السلام الشامل » حسب التفسيرات المتعددة للفظ العربي السامي الكنعاني القديم.

ولم تنسلخ صفات القداسة والسلام عن مدينة القدس حتى يومنا هذا، فقد جاءت الأديان السماوية لتؤكد هذه القداسة وتعلي من شأنها، لذلك بقيت « القدس » مدرج الأنبياء وصفاء الروح ومهوى أفئدة المسلمين والمسيحيين على حد سواء، فالمسلمون يقدسون هذه المدينة ومسجدها المشهور باسم المسجد الأقصى الذي كرمه الله سبحانه وتعالى من خلال ذكره في القرآن في قوله:

« سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى». وكذلك مسجد قبة الصخرة المشرفة.

أما المسيحيون فيقدسون هذه المدينة بسبب كنيسة القيامة التي تعدّ من أقدس الأماكن المسيحية في العالم، لذلك كانت القدس: السلام والقداسة والأديان.. وأشواق الصامدين الطالعين للشمس.. وهي عاصمة الروح.. والمؤذن ودقات الناقوس كما يقول محمد البطراوي.

القـــــدس
في التشكيل الفلسطيني

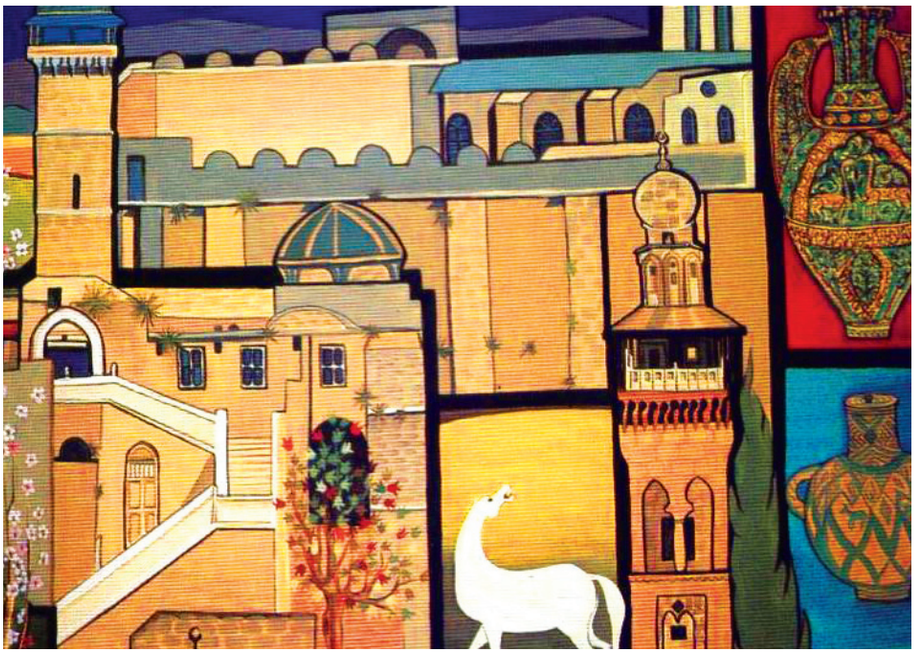

ولأن القدس كانت ولازالت تشغل الضمير العربي والإسلامي قبل وبعد احتلالها من العصابات الإرهابية الصهيونية فقد كانت مثار اهتمام الفنانين التشكيليين المقيمين في الداخل والخارج على حد سواء، أو العابرين من العرب والأجانب، إذ راح هؤلاء يرسمون تلك المدينة كلّ وفق رؤيته وتقنيته ومذهبه الفني.. فمنهم من رسم وديانها وهضابها وجبالها ومعالمها الأثرية، وحاراتها وتكاياها العتيقة، ومآذنها وقبابها وأبراج كنائسها، إلى جانب رصد مظاهر الحياة فيها من أتراح وأفراح.. وبعضهم من ربط النضال الوطني لأهل هذه المدينة الباسلة بعمارتها، والبعض الآخر قدّم أعمالاً تروي حكايتها بشكل يوثق تراثها ويحافظ عليه خاصة قبل أن يحاصرها الجدار العازل. ويحول دون وصول عدد كبير من المصلين والمؤمنين إلى الأماكن المقدسة فيها.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أننا إذا لم نأت على ذكر بعض الأسماء التي تناولت القدس على مسطحات لوحاتها فهذا لا يعني إلا تعذر الحصول على صور منسوخة عن لوحاتهم من جهة، وضيق المساحة المتاحة لنا من أسرة التحرير من جهة أخرى، وأن بعض التجارب التي اخترناها، ليس بالضرورة أن تمثل كل ما قدم.

ولعلنا نشير هنا إلى أن هذا البحث مقتصر على الفنانين الفلسطينيين الذين تناولوا على مسطحات لوحاتهم المدينة المقدسة.. التي أبرزت عروبة القدس وهويتها الفلسطينية والإسلامية والمسيحية، في مواجهة تهويدها على يد الاحتلال الصهيوني، والتأكيد على حق استعادتها بكل الوسائل لتكون عاصمةً للدولة الفلسطينية المستقلة.

- فكيف تناول الفنان التشكيلي الفلسطيني مدينة القدس على مسطحات لوحاته؟

بداية يمكن اعتبار الفنانة زلفى السعدي (1910 ـ 1988)، رائدة الفن الفلسطيني الانطباعي، وأهم رواده، الذين اعتمدوا على اللحظة الزمانية والمكانية ذات الضوء واللون المحددين، وهذا ما نلاحظه بوضوح في لوحتها عن « المسجد الأقصى » الذي رسمته عام 1931 في القدس، حيث أولت النور الموزع على تفاصيل عمارة المسجد وأشجار الصنوبر من الخارج عناية خاصة، لأن المسجد الأقصى كان عندها وسيلة لتقديم رؤيتها اللونية والجمالية للمكان بحساسية الفنانة الأصيلة من أجل إبراز خصوصيتها.

وهذا الكلام ينسحب على ابن جيلها وزميلها الفنان داوود زلاطيمو (1906 ـ ..) الذي رسم مسجد قبة الصخرة (1979) بدقة متناهية، حيث تفصيلاته المعمارية ومظهره الخارجي بزخارفه المتنوعة الرائعة الجمال والناس الموجودون بساحته والأشياء المحيطة بخلفيته من مآذن وبيوت وأشجار تظلها سماء زرقاء ملبدة ببعض الغيوم.. ولعل أهم الجوانب التي ألح عليها الفنان في هذه اللوحة هو المشهد المضاء بنور طبيعي والذي يظهر المسجد مضاءً أكثر مما هو في الواقع.. فنراه بتفاصيله التي نظمت بتناغم لوني.. ساهم من خلال تدريجات الإضاءة في خلق جو شاعري سواء من حيث الموضوع أو الصياغة.

وضمن السياق نفسه تبدو لنا تجارب « محمد بشناق، صلاح الأطرش، نصر عبد العزيز، بشير السنوار، محمود خليلي » منسجمة مع بعضها من حيث المصدر والتي تدور موضوعاتها حول قبة الصخرة وما يحيط بها من عمارة القدس، وهكذا تبقى تجاربهم على اختلاف عناصرها وجمالياتها داخل الاتجاه الانطباعي والتعبيري.

القـــــدس
في التشكيل الفلسطيني

ويعد الفنان إسماعيل شموط (1930 ـ 2006) أحد أهم الفنانين الفلسطينيين الذين عبّروا عن القدس بلغة خاصة، حيث اختار للتعبير عنها الصيغة التعبيرية الفنية. ففي لوحة « إرادة الحياة أقوى » يعبّر شموط من خلال رسمه لثلاثة نساء ـ بزيهن الفلسطيني المطرز ـ يتوسطهن واحدة تحمل بيدها اليمنى باقة ورد من الحنون وتشير بالأخرى مع أيادي زميلتيها إلى الأوابد التاريخية والجموع البشرية الفلسطينية التي تمارس مراسم طقوس الفرح رغم جبروت الاحتلال وعوامل القهر التي تقوم على التوازنات في الكتل.. والخلفيات.. والمعالجة اللونية التي أصبحت أكثر سطوعا وتبلورا في إسقاطاتها على النساء والجموع البشرية التي تمارس طقوس الحياة.. والتي تداخلت مع الخلفية..

وهنا يقدّم شموط من خلال هذه اللوحة تلاحم أبناء الشعب كله، وتؤكد الصياغة على هذا التلاحم، وتبرز في الأجزاء الأخرى الرموز الدينية والتاريخية وبر فلسطين وبحرها

والقمع.. وقد رسم خلف تلك الجموع والنساء الرموز الدينية والتاريخية مثل « النجمة الثمانية وقبة الصخرة وكنيسة القيامة وبعض الرموز التي تحكي قصص التاريخ والأمجاد.. وكذلك بحر فلسطين «.

وتعتبر هذه اللوحة من أهم لوحاته وذلك لغناها بالعناصر وسمائها، وذلك لربط هذا التلاحم بالهدف الرئيسي وهو وحدة الأرض والشعب وعدم قدرة الاحتلال على طمس الرموز الدينية والتاريخية من جهة وعدم قدرته شق الوحدة الوطنية من جهة ثانية.

وظلت الفنانة المقدسية جمانة الحسيني (1932) محافظة في لوحاتها على الجانب المعماري للمدينة المقدسة من: « قباب، وتيجان مزخرفة، وأقواس وأبواب وشبابيك « مؤكدة على القيمة التسجيلية في لوحاتها من أجل لفت الأنظار إلى هوية هذه المدينة، والكشف عن الحقيقة التي تحاول الصهيونية طمسها من خلال عمليات التهجير والهدم والتزوير لمعالم المدينة التي أصبحت بأشكالها الهندسية على مسطحات لوحاتها رمزاً لفلسطين المغتصبة.

ففي لوحة تمثل مدينة القدس (1975) بقبابها ومآذنها وبيوتها.. قصدت الفنانة بأن يغلب على جو لوحتها الألوان الداكنة من الطوبي والبني المحروق والبرتقالي والاوكر، وفي وسط اللوحة رسمت الفنانة إطاراً داخل الإطار رسمت فيه مسجد قبة الصخرة على أرضية بيضاء يحيط به مجموعة من الأطفال الذين يمارسون ألعابهم المختلفة في أجواء من الصفاء.. فبعضهم يلعب الكرة والبعض الآخر يمسك طائرته الورقية. وبذلك مهدت الفنانة إلى أن يكون منتصف اللوحة هو المسرح الذي تتفاعل معه المساحات الأخرى.. وقد شكّل الإطار النافذة التي تستدرج العين لاكتشاف حكايات المدينة والطفولة قبل أن يداهمها الاحتلال.

وتقدم الفنانة تمام الأكحل (1935) من خلال اللوحة

التي حملت عنوان « من القدس 1984 « صيغة خاصة تعتمد على العناصر المعمارية مثل البيوت والمآذن والقباب، والفنون الشعبية المتمثلة بالأواني الفخارية المزخرفة، حيث تلعب تلك العناصر دوراً مهما في التوازن الإيقاعي إلى جانب خط الأفق الذي يأخذ موقعا مركزيا في التكوين .. كما أضافت إلى تلك العناصر.. عنصراً تراثياً متمثلاً في « كف يد « يتوسطها عين زرقاء وذلك لرد الحسد عن المدينة المقدسة، وإلى جانب ذلك لجأت إلى الصيغ التعبيرية حين رسمت حصاناً أبيض بالتفاتته الجميلة والمعبرة باتجاه المدينة المحاطة بنسيج زخرفي من أشجار اللوز والصنوبر.. وقد قامت هذه الأشجار بدور مهم لناحية ضبط إيقاع اللوحة.

والفنانة تؤكد من خلال توظيفها لتلك الرموز والعناصر المعمارية والألوان التي تظلل المدينة، على استمرار الحياة.. استمرار الثورة.

وكانت القدس حاضرة في عشرات اللوحات للفنان سليمان منصور(1947) وربما كانت « جمل المحامل 1973 « من أشهر لوحاته، ويليها لوحة (القدس ـ من التراث 1979) حيث يؤكد في اللوحة الأخيرة التي تمثل القدس وسورها على رؤيته للتراث من خلال تناوله العديد من المأثورات القولية والمفردات المتداولة عبر التاريخ في الحياة الشعبية الفلسطينية.. فمقدمة اللوحة عنده تمثل حجارة سور القدس حيث رسمها بأشكال هندسية ـ مربعة ومستطيلة ـ متفاوتة الأحجام، وكل واحدة من هذه الحجارة تمثل مدلولاً من مدلولات التراث المتداولة في الحياة اليومية الفلسطينية، مثل: حذوة الفرس، الإله داجون، الهلال، القمر، السمكة، المفتاح، وحدة تطريز

القـــــدس
في التشكيل الفلسطيني

عرف الديك، وحدة تطريز « النجمة الثمانية «، الجرار الفخارية، وحدة تطريز السنبلة، قلب حب، ، كف « الخمسة «، كف الخمسة في وسطها عين الحاسد، عين الحاسد الزرقاء، المأثورات القولية، مثل: « ما شاء الله، الحسود لا يسود، يا ساتر.. وتنتهي تلك المفردات والعناصر في أعلاها إلى الحد الفاصل من خط السور وخط الأفق.. حيث ارتفعت قباب البيوت والمساجد في سماء خضراء ترصعها النجوم وطيور العصافير التي تحوم وتغرد ما بين الشمس وسطوع الهلال.

لقد تفاعلت في هذا العمل موسيقى الخطوط والمساحات والعجائن الخشنة والألوان التي توزعت بين الفاتح والقاتم.. وحرص الفنان على أن تحفل مساحاته الهندسية التي تنبثق منها العناصر التراثية تمويهات من الألوان الدافئة والباردة بقدر من الأسود لتحديد حجارة السور وذلك لإظهار العناصر التراثية ولتحقيق التباين في « كادر « محكم التكوين.

ويتناول الفنان فلاديمير تماري (1942) في لوحته (القدس 1982) وحدة الأديان، حيث تتجلى صياغته لهذه اللوحة التي تمثل إحدى أهم تجاربه، وتطرح موضوع القدس بصيغة سياسية متميزة، ضمن صياغة خاصة، لها رموزها المستقاة من المدينة المقدسة، رأس مسقط هذا الفنان الذي وظف عناصره توظيفا رمزيا وتعبيريا عندما رسم في أسفل وسط اللوحة كتلة نحتية ـ صخرية ـ متفاوتة الأقطار عليها نقش يمثل الصليب والشمعدان وبينهما البسملة، ويرتفع من قمة الكتلة خط من نور أبيض يصل السماء. ويرى المشاهد في الجانب الأيمن من اللوحة، بين حدود الصخرة والخط المستقيم المائل، تاريخ كل الغزوات من صليبية وبريطانية وصهيونية حيث رسم جندياً يصوب سهامه نحو المدينة المقدسة التي تقبع خلف الصخرة بقبابها ومآذنها وأبراج كنائسها المظللة بقبة كبيرة تحتضن قرص الشمس.

وفي الطرف الآخر من الصخرة نشاهد مسجد قبة الصخرة خلف شاب ملثم بكوفية يحمل العلم الفلسطيني بيد، واليد الأخرى تتكئ على صخرة الأديان التي تتكئ عليها كلمة القدس، وهذه الكلمة تحتل مساحة نصف اللوحة من الجانب

والرمز السياسي في هذه اللوحة واضح وضوح الشمس، إذ لا يمكن أن يكون في القدس أمن وأمان وسلام إلا تحت علم الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس. هذا ما تريد أن تقوله اللوحة، لكنها في كل الحالات تعكس بكل وضوح وجود الظلم الواقع على الإنسان الفلسطيني حيث يعمل الاحتلال على قتله وتشريده وتهويد عاصمة دولته المستقلة وتفريغها.

لقد قسّم الفنان هذه اللوحة إلى مساحات لونية متجانسة من الأزرق البنفسجي والأخضر والأصفر والأحمر القاني، وأصبحت اللوحة بعمارتها كنافذة الزجاج المعشق.

ولم يقف ارتباط الفنان إبراهيم سابا (1937) بموضوع القدس عند قضية معينة بل كان شاملا لكل القضايا.. وكانت مأساة الإنسان الفلسطيني ومدينة القدس المضمون الأكثر حضوراً في نتاجاته التي اعتمدت الرمز أساساً للتعبير. وصحيح أن محرضاته للتعبير تظل نابعة من حسه الوطني، إلا أن الشيء المؤكد أن تعبيريته لم تصل مداها الحقيقي بمعزل عن الأحداث التي مرت بها القدس، من هنا تأتي رغبة الفنان في التعبير عنها من خلال لوحة (وما قتلوه 1985)، حيث ضمنها العديد من العناصر وفي مقدمتها صليب طويل صلب عليه إنسان فلسطيني بطريقة معكوسة، حيث جرى ربط قدميه وتعليقهما بحبل ثبت على طرفي الصليب، أما ذراعاه فقد شدت على صليب معكوس، يطل على قبة الصخرة التي تتجاور مع المئذنة وبرج الكنيسة، وإلى جوار القبة يقف إنسان عارٍ يحاول وهو يمسك بسلم، يرتكز إلى قمة السماء في محاولة للصعود إليها، وعلى نفس الخط وفي أقصى يسار اللوحة رسم الفنان مشنقة فوق قمة صخرية انطلقت من أمامها حمامة بيضاء، وعلى حافة القمة الصخرية تتمدد امرأة في وضع الولادة.

لقد قدم لنا الفنان « سابا » الإنسان الفلسطيني المصلوب وربطه بعلم فلسطين الذي يرفرف في سماء فلسطين وسيبقى يرفرف رغم العذاب والصلب.

ويمكن أن نذكر هنا أسماء فنانين كثيرين عالجوا موضوع القدس ولعل أهمهم: مصطفى الحلاج، طالب الدويك، عصام بدر، فيرا تماري، عيسى عبيدو، توفيق عبد العال، عمر شموط، عبد الرحمن المزين، إبراهيم هزيمة، كامل المغني، عبد المعطي ابو زيد، علي الكفري، محمود طه، نبيل عناني، تيسير بركات، تيسير شرف، سامية الزرو، أوفيميا رزق وغيرهم... لا يتسع المجال لتقديم قراءة في أعمالهم.. لذلك سأكتفي بهذا القدر من الأسماء أملاً أن يستوفى هذا البحث في وقت قريب.

* ناقد وتشكيلي
ghaziinaim@yahoo.com